Sirte University Journal of Humanities **(SUJH)** مجلة جامعة سرت للعلوم الإنسانية
Source Homepage: http://journal.su.edu.ly/index.php/Humanities/index
https://doi.org/10.37375/sujh.v13i1.1327

الظاهرة الطرقية في الجزائر، بين الثقافة والهوية.

أ.د محمد مكحلي
m_mekahli@yahoo.fr
مخبر البحوث ودراسات الفكر الإسلامي في الجزائر/كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية/جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس/الجزائر

الملخّص

غدت الطرق الصوفية أداة تنظيمية قبلية جدُّ متطورة، تضَّطلع بدور ديني مقدس، سياسي ودنيوي، وهو محصلة لنفوذ اجتماعي أعتبر آلية من آليات تجسيم النفوذ، لا سيما تجاه السلطة الحاكمة، ووسيلة لضبط القبائل، بإخماد صراعاتها المحلية في بعضها البعض، وبين السلطة وهو ما عمد له الحكام على فترات باستعمال الطريقة لضبط القبيلة، لذلك قامت الطريقة والقبيلة بمهام متعددة ضمن مجالها الجغرافي كالجباية، الأسواق، المواسم، وإدارة المقدس، فما كان على المخزن سوى العمل على كسب ولاء هذه المؤسسات، أو الدخول في صدام.

الكلمات المفتاحية:
الظاهرة الطرقية، الجزائر، الثقافة، الهوية.

Abstract

Sufi orders have become a highly developed tribal organizational tool. We assume a sacred religious, political and worldly role, and it is the result of social influence that is considered a mechanism for materializing influence, especially towards the ruling authority and a means to control the tribes, by extinguishing their local conflicts with each other, and between the authority, which is what the rulers intended to do. At intervals, the method was used to control the tribe, so the method and the tribe carried out multiple tasks within their geographical scope, such as collection, markets, seasons, and the administration of the sanctuary. The store had nothing but to work to win the loyalty of these institutions or enter into a clash.
Political factors, along with social and economic factors, contributed to the emergence of these institutions, as a result of many political, religious, social, and economic factors.

Keywords
marabout phenomenon, Algeria, culture, Identify

المقدمة

ساهمت العوامل السياسية، ومعها الاجتماعية والاقتصادية، في بروز هذه المؤسسات، وكنتيجة لعديد الإرهاصات السياسية، والدينية، والاجتماعية، والاقتصادية.

عملت العوامل المادية، والنفسية، والاجتماعية، على نمو هذه المؤسسات حيث انبثقت التجربة الصوفية، مع ما عرفه المجتمع من انهيار سياسي واجتماعي، أذكى نمو المسؤولية الأخلاقية لهذه الطرق اتجاه المجتمع.

تمثَّل التصدي للاعتداءات الخارجية بروز مكانه الأولياء، والمرابطين، وشيوخ الطرق، هذا الذي يبيّن أن الجهاد لن يكون من قبل السلطة الحاكمة فحسب، بل كانت بتزكية شعبية من هؤلاء، من ذلك مشاركتهم الفعلية في حركة الجهاد وتنظيمه، فظهر أولياء مجاهدون، على امتداد المجال الجغرافي للجزائر، وهو ما أشار إليه أدمون دوتي "Edmond Douté" من أن الجهاد كان عبارة عن تدافع حامية من المتطوعين على أرض الإسلام، في وجه أي هجومات خارجية. **(لبيض. سالم، 2006، ص44)**.

لعب هؤلاء الأولياء المجاهدون أدوارا هامة في صد خطر الاسبان، كما أن زوال هذا الخطر كان حافزا في تحديد وظائف الطرق الصوفية في العهد العثماني، والتي تحولت إلى زوايا وأصبح لكل طريقة زاوية، فأصبحت بذلك موقد مغناطيسي للتأثير على المجتمع، وأصبح لكل طريقة زاوية، فأصبحت بذلك موقد مغناطيسي للتأثير على المجتمع.

هذا ما سنتناوله في هذه الورقة العلمية، بالحديث عن:

- ماهية الطرقية.
- الثقافة الدينية.
- الخطاب الطرقي.

مدخل مفاهيم أساسية للثقافة والهوية.

أولا: الطرقية الاصل والمفهوم:

الطريقة في معناها الاصطلاحي: هي المنهج أو السبيل، فهي نهج القوم الذي عليه سلوكهم وسيرهم إلى حضرة الله، وأهلها مطالبون بإتباع الرسول –صلى الله عليه وسلم– في أقواله وأفعاله العادية والعبادية (**ابن منظور، د،ت**). فهي منهج شامل لكلِّ الممارسات الحياتية، وهي عبارة عن منظومة مفاهيمية يبدعها الولي، ويلتزم بها مريدوه وأتباعه، فهي طريق خاص بنوع من الناس يميزهم عن غيرهم برؤية في المنهج اللازم إتباعه، للوصول للحقيقة المطلقة، عبر مراحل ومقامات محددة. (**الجرجاني. علي، 2007 ص141**).

إن الحديث عن الطرقية الأصل والمفهوم يجرنا إلى تحديد ذلك. يطلق مفهوم الطريقة للدلالة على السيرة، والمذهب، والحال. (**عبد العزيز. الهادي،2017، ص113**). أمَّا الطريق فهو السلوك القاصد إلى الله وحبه، وطريق التصوف هو طريق أولياء الله وأهل حبه، وهو السيرة المختصة بالسالكين إلى الله تعالى. (**عبد العزيز،2017**).

بما أن الطريق عبارة عن مراسم الحق تعالى المشروعة التي لا رخصة فيها، والطريقة غالبا ما تنسب لشيخ ضالع في ميادين التصوف من أهل الكرامة، والمكاشفة، مع قمع المنازل والترقي في المقامات. (**مكحلي. محمد،2018، ص63**).

يُطلق على الطرق الصوفية في معناها الاصطلاحي: السبيل والمنهج فهي منهج شامل لكلِّ الممارسات الحياتية، وهي تشكل منظومة مفاهيمية يبدعها الولي (الشيخ)، ويلتزم بها مريدوه وأتباعه، وهي بعبارة أخرى: طريق خاص لجماعة من الناس (المريدين والاتباع). (**مكحلي، 2018**). يتميزون عن بعضهم البعض برؤية في المنهج المرجو اتباعه، للوصول للحقيقة المطلقة، عبر مراحل ومقامات محددة. (**ابن خلدون، عبد الرحمن،1988**) وهو ما وصل إليه "**ابن خلدون**" من أن الطرق الصوفية، هي: " منهج لطريقة القوم عبر محاسبة النفس على الأعمال والتروك". (**الأخضر. لطيفة، 1993، ص34**).

جعلت الأسباب السياسية والثقافية والهيكلية، الطرق الصوفية طرف في المعادلة الاجتماعية، والحضارية:

لقد برزت الطرق الصوفية خلال فترات متقطعة، ميَّزها التفكك والصدام هذا ما يجرنا إلى القول: إنها كانت فاعلة في صلب المجتمع حتى في فترات وقت السلم، كقوة وهيكل، لتحقيق اللحمة الاجتماعية. (**الأخضر،1933، وكذلك أبي الضياف. أحمد، 1964**) عبر لعب دور الدولة باعتبارها (الطرق الصوفية) وليدة المجتمع العميق. (**بلغيت. محمد الأمين،2001**).

شكَّل ظهور الطرق الصوفية وانتشارها بالجزائر مجالا خصبا لعديد الدراسات والأبحاث، التي قام بها الباحثون الفرنسيون، وضرورة فهم علاقة سلطة الطريقة الصوفية، ومعها سلطة القبيلة، خاصة أثناء فترة المقاومات الشعبية.

اتخذت فرنسا الاستعمارية عديد الإجراءات القمعية في حق الطرق الصوفية، خاصة في فترة حكم **جيل كامبول "Jules combon"** عبر عملية ممنهجة من محاولات التفتيت والإضعاف تارة، والاستفادة منها وترويضها تارة أخرى. (**بلغيت،2001**).

كثيرا ما ينتقل المنصب من عائلة تتبع الطرق الصوفية، طقوسًا منها حلقات الذكر من الذكر الخفي. (ترديد ذكر الله بصوت منخفض)، والذكر الجلي (إنشاد قصائد وتراتيل صوفية وتوسلات لآل البيت). حيث نشطت الطرق الصوفية خاصة في عصور الأزمات، وعدم الاستقرار والإقناع الاجتماعي.

1–الثقافة الدينية بالجزائر:

يمكن الوقوف على الثقافة الدينية بالجزائر، حيث مثَّلت عبر التاريخ إحدى أهم مناطق التسامح الديني، والانفتاح على الآخر، فقد أثّرت وتأثرت بالحضارة الإنسانية عموما، حضارة احوض المتوسط على وجه الخصوص.

لا شك أن التاريخ الاستعماري مليء بالأحكام المسبقة السلبية، المبنية على مفاهيم لا ترتبط بالواقع التاريخي الجزائري، والحيلولة دون تموقع الدين في مكانته من المجتمع.

تمكنت السلطة السياسية من احتواء وتحييد المؤسسة الدينية، فغاية الدين والدولة واحد، وهو حكم المجتمع، فخطاب السلطة وسلوكها مرتبط بالدين، حتى يمنع كل مظاهر الاحتجاج والانفلات. كما أنّ المؤسّسة الدينية عرفت حالة من التشظي بحضور الإسلام الشعبي والرسمي. فقد ارتبط التراث المرابطي مع الحركات الصوفية، التي أحالت الدين إلى تراث غير قادر على تفعيل الحاضر. ومعلوم أنّ المناخ الثقافي والثقافة الدينية، شجّعت على بروز الفكر الطرقي، والذي لا يتطلب سوى حدّا باهتا من المعرفة والإلمام بالدّين. إلى جانب الفكر الصّوفي فقد انتصبت الزّوايا كأحد العلامات الفارقة في المشهد الثقافي، ورغم انحسار هذه الروافد الدينية إلّا أنّه تضمن ما يدلّ عليها في مواضِعَ عديدة، مثل: قدرتها على الحشد الاجتماعي، والحدّ من الاحتقان لفائدة أولي الأمر .

قامت السياسة الثقافية الدينية على الأخذ بالكتاب والسنة، والتدليل بما جاء في عديد من الآيات الحاثة على الارتباط بالدين، وجعلها منهاجا للسياسة والحكم . قال تعالى: ﴿ أَم يَحسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَا ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضلِهِۦ فَقَد ءَاتَينَا ءَالَ إِبرَٰهِيمَ ٱلكِتَٰبَ وَٱلحِكمَةَ وَءَاتَينَٰهُم مُّلكًا عَظِيما ﴾ .(**سورة النساء، الآية54**) وفي آية اخرى، يقول تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُوَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾. (**سورة النساء، الآية56**)، وفي مواضع أخرى دلّت هذه الثقافة الدينية على الحكم مثل قوله تعالى:

﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ ا لنَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا** ﴾ (**سورة النساء، الآية58**).

كما استطاع أصحاب الطرق ومن خلال تشكيل ثقافة دينية جديدة، مع ما انتجوه فكريا أن يخلقوا لأنفسهم ولمريديهم عالما من المعارف، والتدين افترضوه وآمنوا به، كما تبين لنا طبيعة العلاقة بذواتهم التي يعتبرونها منبع ومصدر تلك الثقافة ومبادئها في جهاد نفسي وعملي، للوصول إلى إدراك الذات الالهية، عبَّر عنه الطرقيون أنفسهم في معنى الاشتياق إلى الخالق.

2- الخطاب الطرقي:

تعتبر الطريقة عند الصوفية، ملة أو نحلة دينية، يتبعها المريدون وفق منهاج شرعي، كما تُعد عبارة عن نهج رباني روحي، يسلكه الاتباع، للوصول إلى الله، وإدراك ذاته.

لقد تعددت مفاهيم وتعاريف الطريقة، فمن يقول: إنها سيرة مختصة بالمتصوفة المالكين. "ومن يقول: إنها أسلوب عملي لرعاية سلوك المريد وعليه فإن تعدد التعاريف والاصطلاحات حول مفهوم الطريقة أن أطلق عليها السلوك، أو المنهج، أو الطريق هذا الذي جعل الطريقة مع تطور التصوف أن أصبحت تطلق على مجموعة من الأتباع والمريدين، يرتبطون ويعتقدون في الشيخ كما يخضعون لنظام دقيق وعملي، في السلوك ممزوجا بالأخلاق السامية غير تزكية النفس، وأبعادها عن المنكرات. (**مكحلي،2022**). وهي بتعبير المتصوفة "مراسم الحق تعالى المشروعة التي لا رخصة فيها، وعند إدوارد دونوفو " Edward Deneuvo حكم ديني يحصل فيه المرابط من النبي على وحي الطريق، الذي يجب اتباعه في طريقة التعبد، والتقرب إلى الله ".هذا الذي توصل إليه ابن خلدون من أن الطريقة هي منهج لطريقة القوم، تقوم عبر محاسبة النفس إلى الأعمال والتروك.(**مكحلي،2022**).

اعتبرت الطرق الصوفية مؤسسات موازية للدولة والسلطات الرسمية، بسبب الدور الذي لعبه مشائخها، والمكانة التي اكتسبوها وسط الفئات الشعبية، حيث غدت كل طريقة تنتسب لشيخ وتحمل اسمه، فأصبحت الطرق الصوفية تشكل صنفا له خصوصيته في التدين، هيمن على الحياة الدينية لا في الجزائر فحسب، بل في كل بلاد المغرب، فالطريقة الصوفية حسب الأستاذ سالم لبيض: منظومة مفاهيمية يبدعها الولي، ويلتزمها الأنصار والمريدون، فكرا أو ممارسة. (**دونوفو. ادوارد، 2003، ص26**).

بدأ تشكيل الطرق الصوفية عبر البيعة وهي وعد وعهد، بإتباع الشيخ والسير على نهجه، كما تقوم على ثلاث قواعد –الشيخ– المنهج، والمريد. كان للنسب الشريف دوره البالغ في تأسيس الطرق، وهو يعد شرط أساسي يقوم على انحدار الشيخ المؤسس للطريقة لشجرة آل البيت، تقيم عليه مشروعيتها مع ما يتطلب من علم شرعي، والإلمام بالكتاب والسنة، والتفقه في الدين، والكرامة التي تساهم في انبثاق الولاية. (**لبيض،2006**).

مثَّل الخطاب الطرقي حدود التفاف الفئات الشعبية، وراء الطرق ووسيلة لكسب ود الجماهير الشعبية، فكان أن اضطلعت هذه المؤسسات بعديد الوظائف كالقضاء، والتعليم، ودفع الضرائب، والجباية، كما كان لها دور مهم وخطير، أشارت إليه لطيفة الأخضر، وهو حق اللجوء، والحصانة، وحق السكن للمعدمين، " والزردة أو الوعدة، ما جعلها دويلة داخل الدولة. هذه الدولة، كما حددتها لطيفة الأخضر، دويلة دون بيروقراطية، ولا هياكل، ولا نصوص. (**مكحلي،2022**)، ما يجعلها عقد روحي، وأخلاقي، يربطها بالفئات الشعبية المنتمية لها، عبر الوعدات والزيارات، والمواسم، مع ما يقدم للطريقة الزاوية من هدايا، فتشكل نوع من الارستقراطية الطرقية، جمعت بين السلطة الروحية، والسلطة السياسية، نتيجة التفاف الفئات الشعبية حولها، وحول برنامجها، وطبيعة الأوضاع السياسية المتردية. (**لخضر،1993**).

ساهم الخطاب الطرقي في ديمومة هده المؤسسات، وبرزت بعد رحيل مؤسسها، بحيث استطاعت أن تصبح قوة سياسية، يحسب لها حسابها، كما لها تأثير كبير على مجرى الأحداث، خاصة السياسية منها، فما كان من الحكام إلا التأقلم معها، تارة بمداراتها، واستمالتها وتوجيهها،

لمصالحهم حينا آخر، وهناك من الحكام من انقلب عليها، وأعلن الحرب للتصدي لنفوذها وسلطتها. (**لخضر،1993**).

تميزت الطرق الصوفية بنشر الدين الإسلامي، وتعاليمه، كالتيجانية التي ارتبطت بالعديد من المجتمعات الإفريقية، من خلال محاربة الوثنية، وزرع بذور التسامح والاخاء، وتوسيع الدعوة الإسلامية. والسنوسية، والقادرية، واضطلاعهما، بالتربية والتعليم، كما احتضنتا اللغة العربية، وحفظ المتون، والسيرة النبوية، وعلوم القرآن. (**مكحلي، 2022**).

يمكن الحديث عن الظاهرة الطرقية بمعزل عن التحولات المؤسساتية التي عرفها المجتمع الجزائري والاسلامي عموما، فاختلطت في الحياة الاجتماعية المقدس بالدنيوي اختلاطا سحريا عجيبا، ما نتج عنه هوية ثقافية، فخرجت الظاهرة الطرقية من التعبد، الى دائرة الحياة الاجتماعية. كان للخطاب الطرقي أثره على الحياة الثقافية بالجزائر، فلا تكاد تخلو منطقة من مناطق البلاد من طريقة أو زاوية فشكل الخطاب مظهرا خطيرا في الخيال الشعبي معرفيا، واجتماعيا.

شكَّلت الدراسات والأبحاث الأنتروبولوجية خزانا، ووعائا للعبور به داخل أغوار المجتمع الجزائري، والمغاربي عامة. منها دراسات "**روبرت مونتاني**" Robert Montaigne الموسومة "**البرابرة والمخزن في جنوب المغرب**"، و"**جاك بيرك**" jaque Berque وغيرهم كثير التي شملت عديد الحقول المعرفية، من أتنوغرافيا- وأثنولوجيا، وعلم الاجتماع الثقافي، بالإضافة إلى علم الأناسة. (**مكحلي، 2022**).

كان الغرض من هذه الدراسات، معرفة ماهية هذه المظاهر الاجتماعية، والثقافية من عادات، وطقوس احتفالية، وفهم ظاهرة الولاية، والأولياء بالوقوف على أصولها العقائدية والدينية، والمجتمعية المحركة لها، وهو ما عبَّر عنه "**دوتيه**" "**Douté**" في كتابه "**القبيلة والأولياء**" (**لبيض، 2006**).

مثَّلت الطرق الصوفية في خطابها، وفي علاقتها بالاستعمار، جزء هام ومهم من هوية المجتمع الجزائري، حيث شكَّلت في جزء كبير منها، نوع من أنواع السلطة الشعبية حتى بدايات القرن الـ 20 م.

ثانيا: مفاهيم اساسية للثقافة والهوية:

يزخر التراث الشعبي بعادات وتقاليد شعبية كثيرة، أسهمت فيها الأجيال عبر عصور مختلفة، اتخذت صبغة طقوس مقدسة، أصبحت بدلك مشتركة بين أبناء المنطقة أو الجهة، وقد تتكرر عدة مرات وفي أماكن مختلفة. أضحت هده العادات راسخة في نفوس الأجيال تتوارث جيل عن جيل، وشكَّلت تراثا شعبيا يشترك فيه عامة الناس، يطبع سلوكهم وأفعالهم وحياتهم اليومية ويؤثر فيهم، فيصبحون مدافعين عنه بمختلف الوسائل، لأنه يجسد ماضيهم، وماضي أجدادهم، ويمثِّل بالنسبة إليهم الإطار العام الذي يتحركون فيه، وقد يأخذ البعض من هده العادات، والتقاليد طابع القداسة ويصبح المحافظة عليها من الأهمية بمكان، بالنسبة لجميع أفراد المنطقة أو الجهة "القبيلة". (**مكحلي،2022**).

ارتكزت السياسة الاستعمارية على محق، وسحق، وتغييب كل ما هو معبر عن هوية الجزائريين وامتدادهم التاريخي والحضاري، وقد كان احتلالها للجزائر خير معبر وأقوى دليل على ذلك طيلة 132 سنة، وقد سنّت وأصدرت لذلك العديد من القوانين التي بقيت شاهدة على سياستها الاستعمارية القمعية، والوحشية، والتجهيلية. (**مكحلي،2022**).

1- الثقافة وظيفة حركية:

حفلت الظاهرة الطرقية في الجزائر بمكونات ثقافية، كان لها شديد الأثر على الجوانب المعرفية والفكرية، وعلى التنشئة الاجتماعية، في علاقة بين الموروث الثقافي والأسلوب التربوي، فكان للثقافة أن كسبت حركية وظيفية، التقت مع الظاهرة الطرقية عبر تفاصيل الطريقة، بتأثيرها في النسيج العام للمجتمع، من خلال أنماط التفكير، والتعليم والانقياد، وهكذا تشكَّلت شخصية قاعدية ليست بالضرورة مستقرة، بل متغيرة تغير أوضاع هذه الشخصية، الحاملة لعناصر ثقافية انثروبولوجية.(**لبيض، 2006**)، فغذت آلية من آليات التحصين، في وجه ثقافات أخرى غازية، تجسيدا لمرجعية محلية، شكلت بناء هوياتيا قائم على الطريقة. (**الوناس. منصف، 1995، ص8**).

2- الهوية بين الكيان وجاهزية المعطى:

شكلت الارض والمجال مكونا وبعدا هاما في تشكيل الهوية، حيث كان الارتباط بالأرض استمرارية في البقاء والاستقرار، كما أسهم الانصهار، وعملية الحراك السكاني في تحديد المجال الطرقي، وترسيخ الانتماء إلى الطريقة، شكل كيان هوياتيا أعطى ديناميكية أكسبت الظاهرة ملامح خاصة بها. (**الوناس. منصف، 1995، ص8**).

شكَّلت الهوية الترابية علامة مهمة من علامات كيان الهوية، ومعطى مهما في تحييز المجال، كل هذا عبر مسيرة طويلة ومضنية لعمليات التحييز. حافظت الهوية عبر تحديد المكان رغم ما واجهته

من قسوة تاريخية، اجتماعية، وثقافية مما كان له دوره في إرساء تواصل ثقافي، واجتماعي وأنماط سلوكية، وثقافية اعتبرت نوع من الايديولوجيا الضمنية، هذا الذي جعل الهوية الذاتية في البروز عبر وحدة المجال والدين، فعززت الروابط ونمت مشاعر الالتحام والانتماء، فكانت مادة هوياتية أساسية عمادها الظاهرة الطرقية، في حركة زمنية طويلة، انتجت هوية محلية. (**مكحلي،2022**).

أسهم الارتباط بالكيان الطرقي مساهمة كبيرة في عملية الاستقرار، وفي تشكيل الهوية، فأصبح له رموز ثقافية كاللباس، والاعراف، والتقاليد، والمواسم الدينية، ارست تراكمية حضارية مثرية. (**الوناس. منصف، 1995، ص8**).

ساهم تحييز المجال في انضمام عديد القبائل إلى الطرق الصوفية، ما جعلها تحظى بالنفوذ وتتمدد بزيادة مواردها، وتعزيز سلطتها وتقوية مجالها الجغرافي، ولنا فيما وصلت إليه الطريقة الشابية خير دليل، حيث تحولت عاصمة الإمارة (القيروان) إلى محج للقبائل الحليفة المنضوية تحت لواءها في تونس، وشرق الجزائر، ومنطقة وادي سوف، الذين كانوا يرددون أبياتا شعرية وأناشيدا، تمجيدا وتعظيما للطريقة، واعتزازا بالانتماء لها. (**الشابي. علي، 2015، ص404**).

وليدات الشابية تميرات .

في وسط العنقود.

واللي خطوا الشابية

صابهم الجوع وعاود.

تصبح بلادهم خلية

نخيلات كيف الموارد.(**مكحلي،2022**).

نتج عن كل ذلك ظهور سياسة جديدة، حيث أصبح مجال الطريقة عبارة عن إمارة مستقلة، كما هو الامر عند الطريقة الشيخية، التي حملت لواء الجهاد فقاومت التحرشات الأسبانية، وكان شيخها يستقبل بالتشريفات، والمراسيم، مع ما كان من علامات الهوية، بغرس راية للطريقة والتواصل مع السلطان السعدي زيدان، ومراسلاته لداي الجزائر. (**راس مال. عبد العزيز،2011، ص88**).

وعليه كان من نتائج ذلك وفاق طرقي، وتلاحم شعبي اجتماعي، على أساس نظام هرمي قمته شيخ الطريقة، وقاعدتها المريدون والاتباع، فقامت بتسيير المقدس، عبر الولاية والزيارة، وتسيير العنف، وحروب وتمردات الدرقاوية والتيجانية مثلا. (**بن عمارة. خليفة، 2013، ص187**).

ثالثا: شبكة التصوف الطرقي.

1– بين ثلاثية الشيخ المرابط، والمريد.

أ. ولاية الشيخ:

يرتكز الانتماء إلى الطرق الصوفية على بناء هرمي تراتبي للمريدين، والأتباع فالمتصوفة يقرون بوجود مراتب ومقامات، توجب على السالك تزكية نفسه وتطهيرها، بإتباع وسائل معينة كالأوراد والأذكار، والتسابيح تحت نظر الشيخ أو أستاذ يقتدي به لا محالة، .. إذ أن سبيل الدين غامض، وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة، فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طريقه.

وبهذه الهالة القدسية التي أضافها المشايخ أصبحت لهم سلطة ونفوذ على الناس، الدين اعتقدوا فيهم الصلاح، والتميز بخصوصيات روحية ليست موجودة عند غيرهم، فحاكوا حولهم الأساطير، ونسجوا القصص.

ب. طاعة المريد:

ترتكز طاعة المريد لدى أصحاب الطرق الصوفية على القبول بالسلطة المطلقة، التي يمارسها شيخ الطريقة على المريدين والإتباع، بعد أن يكونوا قد تلقوا التوبة التي تؤهلهم لذلك، ومن مبادئ طاعة المريد نشير إلى ما يلي:

– إجلال الشيخ، والمبالغة في محبته.

– طاعته المطلقة، باعتباره أعرف الناس وأعلمهم بحسن السبيل.

– التصديق الكامل للشيخ فيما يصدر عنه، لأن من شروط محبته أن يصم أذنيه عن سماع أحد في الطريق، غير شيخه. (**مكحلي،2022**).

ج– الطريق الصوفي:

للصوفية طريق روحي يعتمد أساسا، ومنهجا، وغاية، على القران الكريم، والسنة النبوية، وجوهر الطريق الصوفي، هو ما يسميه الصوفيون المقامات، والأحوال. وهي تنتظم تنظيما هرميا يكون بـ:

- ✓ شيخ المشايخ.
- ✓ الوكيل.
- ✓ رئيس الزاوية.
- ✓ المريدون. (**الغزالي. أبو حامد، 1991، ص73**).

2– ظاهرة الاولياء وتشكيل هوية جزائرية:

ترتبط ظاهرة الأولياء بالمعتقدات الشعبية، وهي ضاربة في أعماق التاريخ تأقلمت مع عديد العادات والتقاليد المجتمعية، فأسست للإسلام الشعبي. (**مكحلي،2018**).

كان لتمركز الأولياء إن أسسوا حدودا مجاليا، وأسهموا في خلق هوية جغرافية، وحضارية محلية، فكانت مصدر تميز اجتماعي ورمزي.

ارتبطت الظاهرة الولائية مع بروز ظاهرتان مهمتان في المجتمع، هما: القبيلة، والطريقة الدينية. حيث أطرتا الحياة اليومية للمجتمع المحلي، بمجمل مكوناته، عبر تحديد أنماط السلوكات والعلاقات بينهما، من أجل التموقع، وتحييز المجال بتسخير كل إمكانياتها، والعمل على تجسيد استمراريتها، باستغلال عديد الرموز الثقافية كالولي، والزاوية، والوعدة. (**مكحلي،2019**).

كان لحضور الأولياء عبر صفاتهم، وأعمالهم أولياء فقهاء، **كسيدي أبي مدين شعيب**.(**مكحلي،2019**)، وسيدي محمد الهواري. (**مكحلي،2019**). وسيدي عبد الرحمن الثعالبي. (**مكحلي،2019**). والأولياء المجاهدون كسيدي أحمد المليانى، (**مكحلي،2019**). وسيدي لخضر بن خلوف (**مكحلي،2019**)، وسيدي الشيخ (**مكحلي،2019**)، وسيدي إمحمد بن عودة، (**مكحلي،2019**) بالإضافة إلى أولياء المناطق، **كسيدي الخير** (**مكحلي،2019**)، وسيدي بلعباس البوزيدي، (**مكحلي،2019**). فظاهرة النساء الوليات، **كلالة تركية**، (**مكحلي،2019**) ﴿ (**مكحلي،2019**) ولالة ستي، (**مكحلي،2019**). مع ما أفرزته الظاهرة الولائية، من ظهور عديد من الأولياء المزيفين، أو أولياء الشعب مثل الولي (....) رمزا للثقافة الطرقية، وشكلا للهوية المحلية، فكانوا نافذة مهمة، لتعقب التاريخ المحلي مع ما كان لتميزهم من مساهمة في الدفاع عن الثغور، وتشكيل أقطاب للعلم والوعظ والاصلاح.

3- الطرقية والتأسيس لهوية جغرافية وحضارية محلية:

مثَّلت الطرقية في الخيال الشعبي مظهرا من مظاهر الاسلام الشعبي، حيث وجدت مناخا للانتشار، ومكانا للاستقرار، عبر حركية ثقافية نمت وترعرعت بفضل الامكانات المادية مع الأحباس، والأوقاف حيث استمدت قوتها ودليل وجودها، فالظاهرة الطرقية اعتبرت تاريخيا جوهر الأحداث التاريخية.

أسهم انتشار الوعي بالطريقة أن زرعت في مريديها قيم الأمن والطمأنينة، وبعثت فيهم قيم الاعتزاز، واقترنت الهوية داخل الظاهرة الطرقية في مجموعة من الرموز، والدلالات انتجت ثقافة طرقية فكان أن عرفت على امتداد تشكلها محاولات الاحتواء، والاستيعاب من قبل سلطات الاحتلال الفرنسي، كان هذا العامل أكبر تحد عرفته ظاهرة الطرقية، جعلها تفرز خطابا جديدا، وانتاجا ثقافيا مع وعي تاريخي انصب في تحديد هوية جغرافية، عبر تحيير المجال وتكوين هوية ثقافية، وحضارية أصيلة حققت الاجماع والوفاق. (**مكحلي،2019**).

شكلت الممارسات الدينية للزوايا والطرق الصوفية، هوية محلية داخل مجال جغرافي، حيث تآكلت العصبيات، وبرز تأثير علماء ومشايخ التصوف والطرقية، الذي كان عميق الأثر على الوظيفة السياسية، والاقتصادية والاجتماعية للمجتمع مثلتها، قضايا الجهاد، نبذ الفتن، الوساطة والتحكيم. (**الطيبي .محمد،2010، ص30**)، ارتبطت الحركية الاجتماعية والسياسية والدينية على ممارسة وتكوين تعليمي، أساسها إيديولوجيا مقاومة قائمة على إسلام تجديدي (**الزاهي. نور الدين، 2003، ص8**).

الخاتمة:

لقد كتب المؤرخون تاريخ الجزائر بوسائل فكرية، وأدوات منهجية، ارتبطت بوضعية العلوم الإنسانية والتاريخ في عصرهم. إنهم مثل بقية المؤرخين قد تأثروا بأصولهم الاجتماعية والبيئة السياسية المحيطة بهم، والمناخ الفكري الثقافي السائد.

انتصبت الطرق كأحد العلامات الفارقة في المشهد الثقافي، ورغم انحراف هذه الروافد الدينية إلى الهرطقة، فإنّ ذلك لم يمنع السلطة العثمانية من معاضدتها، والانخراط في منظومتها، فهذه المسالك الدينية تتمتع بقدرة الحشد الاجتماعي، والحدّ من الاحتقان، لفائدة ولي الأمر.

شكَّلت الظاهرة الطرقية في الجزائر معطى جوهريا لا محيد عنه، في علاقتها بالسلطة، سواء عثمانية أو سلطة الاحتلال الفرنسي عبر نسج خيوط هوية محلية بتحييز المجال، والاستجابة لحاجات الفئات الشعبية روحيا، ونفسا، وماديا، واجتماعيا، فكان الاحتفال بظاهرة الوعدة أصدق تعبير عن تمركز الهوية المحلية، في تعبير جميل عن هوية طريقة مع ما تحمله من إرث ثقافي، وانتروبولوجي مع ما اعترض الطريقة من عوارض، وهزات بقي الارتباط بالأرض والتشبث بالمجال، وتعاليم الطريقة قائما، ما أسهم في عملية الاستقرار، وتشكيل معالم هوياتها مرتبطة بالأرض، وبالرموز الثقافية كالشيخ ، والولي، والوعدة .

نتج عنه حس مشترك شكَّل هوية ثقافية فكان معيار الهوية عند مؤسسات الطرق، قائما على النسب والانتماء للطريقة، كل ذلك داخل مجال جغرافي محدد، وعبر طقوس، وأشكال للدين كالوعدة والموسم فالهوية عند الطرقيين. تقوم على الإسلام، والأرض، مسقط الرأس، وسلطة الانتماء ولهذا كان التصدي للخطر الأجنبي، من عمق وصلب الهوية، فكانت الظاهرة الطرقية في المجتمع بمثابة الشفرة، أو الرمز، الذي يمكن للمريد بواسطته أن يعيش هويته، وأن يجد نفسه في علاقته بالجماهير الشعبية.

المراجع.

- لبيض (سالم)، **مجتمع القبيلة، البناء الاجتماعي وتحولاته في تونس دراسة في قبيلة عكارة**، ط1، المطبعة المغاربية للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، 2006.
- ابن منظور (جمال الدين أبو الفضل) لسان العرب، ج 102، دار صادر، بيروت، د ت.
- الجرجاني (علي)، **التعريفات**، تح نصر الدين التونسي، ط1، شركة القدس، القاهرة، مصر، 2007.
- عبد العزيز (الهادي)، **الخطاب الصوفي للطرق الصوفية في الجزائر وبلاد المغرب خلال العهد العثماني، الطريقة التيجانية نموذجا**، رسالة دكتوراه في التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، أ.د محمد 5 مكحلي، السنة الجامعية، 2016-2017.
- مكحلي. (محمد.)، **سيدي بلعباس البوزيدي ولي وولاية دراسة تاريخية انتروبولوجية**، دار القدس العربي، وهران، 2018.
- ابن خلدون (عبد الرحمن)، **المقدمة**، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1988، تح حجر عاصي.
- الأخضر (لطيفة)، **الإسلام الطرقي دار سراس للنشر، تونس، 1993**.
- أبي الضياف (أحمد)، **اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، تونس، الدار التونسية للنشر، تونس 1964، ج5.
- بلغيت (محمد الأمين)، **تاريخ الجزائر المعاصر، دراسات ووثائق**، دار البلاغ للنشر والتوزيع، ودار ابن كثير، لبنان، ط1، 2001.
- مكحلي (محمد)، **الطريقة والقبيلة في الجزائر العثمانية توزيع السلطة وتقسيم المجال**، دار القدس العربي، وهران، 2022.
- دونوفو . (ادوارد)، **الاخوان دراسة انتروبولوجية حول الجماعات الدينية عند مسلمي الجزائر**، تر فيلالي مال، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين ملية، الجزائر، 2003.
- الوناس (منصف)، **الدولة و المسألة الثقافية في المغرب العربي**، سيراس للنشر، تونس 1995.
- الوناس (منصف)، **الشخصية التونسية محاولة في فهم الشخصية العربية**، الدار المتوسطية للنشر، تونس، ط 1، 2011 .
- الشابي (علي)، **تاريخ الشابية خلال العهدين الحفصي والعثماني**، جمعية الشابي للتنمية الثقافية والاجتماعية، دار نقوش عربية، تونس، 2015.
- راس مال (عبد العزيز)، **الزوايا والاصالة الجزائرية بين التاريخ والواقع**، منشورات تالة، الجزائر، ج 2، 2011.
- بن عمارة (خليفة)، **تاريخ الجنوب الغربي الجزائري الأعلى**، دار القدس العربي، الجزائر، 2013.
- الغزالي . (أبو حامد) **إحياء علوم الدين**، الطبعة الأولى، دار الثقافة، الجزائر، 1991.
- مكحلي (محمد). **سيدي بلعباس البوزيدي ولي وولاية دراسة تاريخية انتروبولوجية**، دار القدس العربي، وهران، 2018.
- مكحلي (محمد)، **الأولياء والصلحاء في الجزائر الظاهرة والجذور** ، دار القدس، وهران، 2019 .
- الطيبي (محمد)، **التصوف الإسلامي الجزائري من الآلي المعاني، إلى قوة الجهاد والثقافي**، أعمال الملتقى الوطني الأول حول أمجاد الصوفية، دور الفكر الصوفي الوطني في نشر الثقافة الإسلامية، مديرية الثقافة عين تموشنت، دار الفكر العربية، الجزائر، ط1، 24-26 فبراير 2010.
- الزاهي (نور الدين)، **الزاوية والحزب الاسلام والسيسة في المجتمع المغربي**، دار افريقيا الشرق، الدار البيضاء وأفريقيا الشرق، بيروت، لبنان، ط2، 2003.